مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية

اسم المقال: نظام الملل في الدولة العثمانية إبان القرن التاسع عشر (ظهور المشروع الماروني وتطوره أنموذج للدراسة)
اسم الكاتب: سحر علي، أ.د. عبد المنعم الأحمد
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2757
تاريخ الاسترداد: 2026/09/17 16:42 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
147 (2)- 2023: 187-210

Damascus University Journal of Historical Studies
147 (2) - 2023 : 187-210

نظام الملل في الدولة العثمانية إبان القرن التاسع عشر
(ظهور المشروع الماروني وتطوره أنموذج للدراسة)

سحر علي [1]، أ. د . عبد المنعم الأحمد [2]

[1] تاريخ حديث ومعاصر –كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق.
[2] تاريخ حديث ومعاصر –كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق.

الملخص

نظام الملل: هو نظام يعتمد على تصنيف رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين تصنيفاً يقوم على المذهب الديني الذي ينتمي إليه هؤلاء الرعايا.

أما تعبير الملة: فهو يعني ((سكان الامبراطورية العثمانية غير المسلمين)) وقد استخدم في أوائل القرن التاسع عشر على حين أن اللفظة ((ملة)) كان في العصور السالفة يشير الى المسلمين ضمن الإمبراطورية حصراً.

سيوضح هذا البحث موقف الدولة العثمانية من رعاياها وكيف نظمت شؤونهم ضمن طوائفهم ومللهم، وهذا بدوره كان أحد أسباب ظهور المسألة الشرقية وما تبعها من نتائج على الواقع الاجتماعي والسياسي والديني والثقافي لبلاد الشام، نتيجة للامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيين للدول الأوروبية ودور المبشرين في عزل الولاة والحروب الدامية التي قامت في جبل لبنان وتأليب طائفة ضد أخرى، لا بل مذهب ضد آخر ضمن الطائفة نفسها.

وأخيراً: يتطرق البحث الى العلاقة الحميمة بين فرنسا والموارنة والدور الذي لعبه كلا الطرفين في وجود الآخر في جبل لبنان خاصةً.

الكلمات المفتاحية: الملل، الدولة، العثمانية، الموارنة، مترنيخ.

تاريخ الايداع: 2022/4/15
تاريخ القبول:2022/7/20

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

ISSN: 2789-7478 (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/

The Millet System In The Ottoman Empire During The Nineteenth Century The Emergence And Development Of The Passing Project Is A Model For The Study

Sahar Ali [1] , Pro. Abdul Moneim Al-Ahmad[2]

[1] Modern and contemporary history - Faculty of Arts - Damascus University.
[2] Modern and contemporary history - Faculty of Arts - Damascus University.

Abstract

The millet system: of boredom is a system based on the classification of non-muslim Ottoman nationals based on the religious doctrine to which these subjects belong.

As for the term millet, it means ((non-Muslim Ottomans)) and it was used in the early nineteenth century, while the word (millet) was used in earlier times to refer to Muslims within the empire exclusively.

This research will clarify the Ottoman state's position on its subjects and how they organized their affairs within their sects and their faith, this, in turn, was one of the reasons why. that followed it on the social, political, religious and cultural reality of the Levant, as a result of the privileges granted by the Ottoman sultans to European countries and the role of missionaries in isolating governors and bloody wars Which was established in Mount Lebanon and pitting one sect against another, and indeed one doctrine against another within the same sect.

Finally, the research deals with the intimate relationship between France and the Maronites, the role that both sides played in the presence of the other in Mount Lebanon in particular.

Received:2022/4/15

Accepted:2022/7/20

Key Words: Millet, State's, Ottoman, Maronites, Metternich.

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

مخطط البحث:

أولاً– المقدمة:

ثانياً– سبب اختيار البحث:

ثالثاً– إشكالية البحث:

رابعاً– المنهج :

1–سلاطين عثمانيون ينظمون أمور دولتهم:

2–المسألة الشرقية وأهدافها:

3–دور الامتيازات الأجنبية في ظهور حركة التنظيمات العثمانية:

4–الدول الأوروبية وموقفها من الامتيازات الأجنبية:

5–دور المبشرين يعزز الانقسام الطائفي في جبل لبنان:

6–أحداث جبل لبنان الداخلية/1860م. ودور الدول الأجنبية فيه:

7–الدعم الفرنسي للمشروع الماروني ودور الشهابيون والمعنيون في تطوره:

خامساً– استنتاج:

سادساً– الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

المقدمة:

مع بدايات القرن التاسع عشر ميلادي بدأ نجم الإمبراطورية العثمانية بالأفول، و بوجود الكثير من الأسباب والعوامل المتداخلة والمركبة التي أدت الى تقهقر الدولة العثمانية وميل ميزان القوى لصالح الدول الأوروبية بدءاً من القرن السادس عشر. حيث كانت نتائج لما وصلت إليه الدولة العثمانية منها الهزائم التي تعرض لها العثمانيون في القرن الثامن عشر والتي كانت من الممكن أن تكون أعظم خطراً لولا النزاعات التي كانت قائمة بين القوى الأوروبية. والواقع أن العثمانيين قد استغلوا هذه الصراعات للتشبث ببعض المناطق التي احتلوها. وفي بعض الحالات كان الدبلوماسيون الأوروبيون يتنافسون فيما بينهم للحصول على امتيازات من الدولة العثمانية أو لمنع مناوئيهم من الحصول على امتيازات تمليها مصالحهم.

وعلى الرغم من الوضع المتردي للدولة العثمانية فيما بعد، فقد حقق العثمانيون بعض الانتصارات هنا وهناك على الصعيدين العسكري والسياسي ولاسيما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وبعض الخيبات والخسارات في مكان آخر وأشهر تلك الخسائر التي منيَّ بها العثمانيون حربهم مع الروس وما نتج عنها من توقيع معاهدة "كوجك قينارجه " [1]عام /1774م/. والتي حصلت روسيا بموجبها على حق تشييد كنيسة أرثوذوكسية في إسطنبول والتدخل لحماية جميع المسيحيين الأرثوذوكس القاطنين في الدولة العثمانية.

والقارئ لِأحداث القرن التاسع عشر سيجد أن ملامح هذه الصورة لم تتبدل في مجملها. فقد بقيت رقعة الإمبراطورية تتقلص والتدخل الأجنبي يزداد بشكل كبير في شؤون الدولة العثمانية، واندلعت ثورات داخلية كان معظمها بدعم خارجي. ومن الملاحظ أن الحكومة المركزية أصبحت تتدخل بقدر أكبر في القضايا الاجتماعية التي تمس حياة الفرد، ومنها إعادة تنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. لكن الخطر الداهم في تلك الحقبة كان الصراعات الطائفية والقومية التي أفرزتها التطورات السياسية والاقتصادية. في مناطق ولايات السلطنة العثمانية وكمثال النموذج اللبناني الذي تكرست فيه الجذور الطائفية منذ عهد القائمقاميتين ونظام المتصرفية وصولاً الى فترة الانتداب/1920–1943 / والاستقلال فيما بعد. حتى الحرب اللبنانية /1975–1990/ التي كانت الطائفية السياسية أحد أبرز أسبابها الرئيسية.

وهذا بدوره انعكس سلباً على لبنان عامة وعلى المواطنين اللبنانيين خاصة. حيث أن هذا الوضع الطائفي جعل عملية التوجه القومي والتربية الوطنية في حالة فوضى دائمة. بعد أن تخرجت أجيال من المواطنين متباينة الأفكار والمذاهب، ومتضاربة المثل والأهداف والانتماء، فكل طائفة كان ولائها للدولة التي ترعاها وترعى مصالحها وليس الى لبنان الأم، وهذا بدوره أدى الى تكون مجتمع متنافر الأجزاء يعيش أفراده منكمشين على أنفسهم ضمن أحزاب طائفية مذهبية تتبع لأفراد وليس للدولة.

---

[1]– تعتبر هذه المعاهدة بمثابة حجر الزاوية في العلاقات الروسية – العثمانية ، فبمقتضاها استحوذ الروس على الاجزاء الشمالية الشرقية من البحر الأسود ، وأعلن استقلال خانات القرم عن الدولة العثمانية ، واكتسبت روسيا بمقتضى هذه المعاهدة حقوقاً تجارية وبحرية ودينية حيث أصبح في إمكان روسيا التدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها المسيحيين الأرثوذكس .للزيادة انظر محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي(1514–1914م) ، المكتبة الانجلو المصرية، دار الجيل ، القاهرة ،د.ت، ص169. ويذكر محمد فريد بك المحامي المكان الذي وقعت فيه هذه المعاهدة وهو : في مدينة كوتشك كينارجيه (Kajnarja) الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة سيلستريا في بلغاريا. انظر محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس ط1، 1981م، ص342.

ولا يخفى على أحد أن النظام الطائفي السياسي الذي وجد في لبنان قد ولد نظاماً من الامتيازات الطائفية للدول الأوروبية. تمثلت بامتيازات اقتصادية واجتماعية، وثقافية وتعليمية، وقد سمحت هذه الامتيازات للتدخل الأجنبي أن يزداد داخل الشأن اللبناني وبين أطيافه وبالأخص الطائفة المسيحية المارونية ومن هنا وجب على السلاطين العثمانيين القيام بالإصلاحات (التنظيمات) العثمانية والتي ضمنت في بعض بنودها حقوق الطوائف الغير إسلامية ومصالحها. وهذا ما عرف باسم نظام الملل[2] في الدولة العثمانية.

أولاً: سبب اختيار البحث:

مثلما انقسم المسلمون لعدة طوائف انقسم المسيحيون كذلك لطوائف عديدة، وكانوا أكثر اتصالاً بأوروبا من المسلمين الذين بقوا على صلتهم بالدولة العثمانية، فالمسيحيون كانوا أكثر قدرة على التعامل مع الغرب لتقارب عاداتهم وأعرافهم الدينية منهم، وترتب على ذلك أنهم كانوا أكثر ديناميكية في تعاملاتهم، وبذلك فقد تقدمت النواحي الفكرية والعلمية بينهم، وأصبحوا في بداية حركة اليقظة العربية الحديثة بمثابة الوساطة في التعامل بين أوروبا والمشرق، واختلف ذلك من طائفة لأخرى حسب درجة استجابتها للمؤثرات الأوروبية واتخذت الدول الأوروبية من الطوائف المسيحية مبرراً لتدخلها في شؤون الولايات العثمانية عامةً، وولايات بلاد الشام بشكل خاص لما لها من أهمية سياسية و اقتصادية واجتماعية ودينية كبيرة بالنسبة لتلك الدول الاوروبية، و سعت جاهدة من خلال تجارها وقناصلها الى تنظيم شؤون سكانه والاشراف على أمورهم وحماية مصالحهم معتمدتاً بذلك على الامتيازات التي حصلت عليها من قبل السلاطين العثمانيين.

فقد ادعت فرنسا حماية الكاثوليك. وبعد ذلك سعت كل من روسيا لحماية الأرثوذوكس، وانجلترا سعت لدى السلطان العثماني للاعتراف بالبروتستانت وحمايتهم وأدى التدخل الأوروبي في هذه المنطقة إضافة لتضارب المصالح الخاصة بكل دولة لنتائج بالغة الخطورة.

كانت الطوائف المسيحية هي المقصد الأول للإرساليات التبشيرية فلجأت للتقرب منها ودراسة أحوالها ونشر التعليم والخدمات الاجتماعية والعديد من الأفكار الجديدة بين أبناءها، ووضح أثر ذلك في زيادة الصراع والتنافس بين الطوائف الموجودة في جبل لبنان (الدروز –المسيحيين)، وصبغت هذه الأحداث تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر بصبغة الصراعات المستمرة والتي لازالت اصداؤها مستمرة حتى الوقت الحاضر وانقسمت الطوائف الدينية المسيحية في بلاد الشام لثلاث طوائف رئيسية وهم: الكاثوليك والتي ضمت الموارنة الذين سيؤدون دور أساسي في أحداث لبنان كما سنرى في بحثنا هذا نتيجة تحالف البعض من شخصياتهم مع فرنسا، والروم الأرثوذوكس، والأقباط الأرثوذوكس.

ولكي نحيط بالعوامل التي أدت الى إثارة النعرات الطائفية في المجتمع العثماني بشكل عام وبلاد الشام تحديداً و جبل لبنان كنموذج . لا بد من الأخذ بالحسبان الدور الذي مارسته الشركات والمؤسسات الأجنبية في هذا الشأن حيث كانت تختار كبار موظفيها من صفوف الأجانب ويليهم في المرتبة الثانية العثمانيين المسيحيين الذين شغلوا مناصب إدارية أرفع من تلك التي شغلها زملاؤهم المسلمون في بعض الاوقات، ناهيك عن أن المستثمرين الأجانب كانوا يفضلون التعامل مع اخوانهم في الدين من سكان الدولة العثمانية المسيحيين على حساب الآخرين. بحيث أصبح المسيحيون عموماً والموارنة في

[2] نظام الملل: هو نظام يعتمد على تصنيف رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين تصنيفاً يقوم على المذهب الديني الذي ينتمي إليه هؤلاء الرعايا. وكان يطلق على كل مذهب ديني "ملة".

جبل لبنان خصوصاً يتمتعون بامتيازات كثيرة نتيجة لنظام الملل الذي أوجدته الدولة العثمانية ضمن سياق تنظيماتها التي أقامها السلاطين العثمانيين في فترات متأخرة من تاريخ الدولة العثمانية. والتي حصلت عليها بعض الدول الأوروبية إما عن طريق المعاهدات أو امتيازات تجارية تحصل عليها لأفراد معينين تابعين لهذه الدول ومن هنا ونتيجة للعلاقة الخاصة التي كانت تربط المسيحيين الموارنة بالشركات والمستثمرين الأجانب أصبح لهم دور أساسي في المجتمع الشامي في تلك الفترة.

لا شك أن السياسة التي اتبعتها الشركات الاستثمارية في اختيار موظفيها يعكس الاختراق الأوروبي الغربي للمجتمع العثماني على الصعيدين الاقتصادي والسياسي وكذلك الاجتماعي والثقافي، مما أدى الى تحولات جذرية في بنية النظام العثماني.

ثانياً: إشكالية البحث:

إن التعرض لدراسة نظام الملل وتأثيره على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر دون المرور على التنظيمات العثمانية الذي هو جزء منها ستكون الدراسة مفتقرة للمعلومة بعض الشئ، فعندما أصدر السلاطين العثمانيين الإصلاحات القانونية (التنظيمات الخيرية) وهما خط شريف كلخانة عام/1839م. وخط الشريف الهمايوني عام/1856. في عهد السلطان عبد المجيد. أدت بطبيعة الحال الى زوال المرجعية الإسلامية في النظام القائم العام، وترتب على ذلك معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم.

ويبقى السؤال المطروح: هل كان جميع رعايا الدولة متساوين؟ وكيف كانت الدولة تتعامل مع رعاياها من غير المسلمين؟ وما دور التنافس الأوروبي في إيجاد العصبيات والصراعات الطائفية في جبل لبنان الذي هو الأنموذج لدراستنا هذه وفق نظام الملل إبان القرن التاسع عشر والدور الفرنسي البارز لظهور المشروع مثالاً على ذلك.

ثالثاً: المنهج: لدراسة كهذه حالة معقدة ومتشابكة الأحداث وكل حدث فيها سبباً لما قبلة ونتيجة حتمية لما جاء بعده لا بد من إتباع المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على قراءة الأحداث وتحليلها علمياً من خلال السجلات المتوافرة بين أيدينا والمصادر والمراجع الهامة والمتعلقة بهذا الموضوع والتي يمكن أن تغني البحث بالأفكار والفائدة.

1- سلاطين عثمانيون ينظمون أمور دولتهم:

سعى سلاطين الدولة العثمانية منذ بداية تأسيسها الى تنظيم أمور مواطنيهم وفق قوانين وأنظمة استهدفت ضبط الخصوصيات المذهبية في إطار الدولة مع حاجات التوسع الأوروبي التي ابتدأت تأخذ اشكالاً قانونية في علاقاتها مع السلطنة العثمانية منذ تاريخ معاهدة ما سمي "بالامتيازات الأجنبية" التي عقدت بين السلطان سليمان القانوني[3] والملك الفرنسي فرنسوا الأول[4] عام/1535م[5].

[3] ولد في في سنة/1495م. وهو عاشر ملوك آل عثمان استلم عرش السلطنة بعد وفاة والده السلطان سليم الأول عام/1520م. وقد بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها. انظر، محمد فريد المحامي: مرجع سابق، ص198.

[4] ملك فرنسا ولد قبل عام من ولادة السلطان سليمان القانوني، أي في عام/1494م.وتولى الحكم سنة/1515م. و كانت كل حروبه بسبب ادعائه أن له حقوقاً على ولاية ميلان بإيطاليا من جهة جدته، توفي عام/1547م. اشتهر بالتعصب الديني واضطهاد البروتستانت. انظر محمد فريد المحامي : المرجع السابق نفسه ، ص203.

وجاء التعبير ((**ملـة**)) بمعنى ((سكان الامبراطورية غير المسلمين)) ليستخدم في عهد السلطان محمود الثاني في أوائل القرن التاسع عشر على حين أن اللفظ ((ملة)) كان فيما سبق هذا القرن يشير الى المسلمين ضمن الإمبراطورية حصراً[6]. ويمكن القول إن التحولات التي طرأت على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر كانت نتيجة لمساعي السلطنة لإيجاد الوسائل التي تمكنها من حكم رعاياها والدفاع عن حدودها وهذه المساعي لم تتوقف منذ القرن الرابع عشر.

وهنا تجدر الإشارة الى أن الإدارة العثمانية اتبعت في القرن التاسع عشر نهجاً مختلفاً تماماً عن ذلك الذي اتبع في القرن الثامن عشر[7]. فعلى صعيد الإدارات المحلية والمؤسسات المدنية فقد ترك أمر العناية بهذه الأمور لرعايا الدولة ورجال الدين ورؤساء الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، ومن هنا وجد نظام الملل[8] الذي طبقه العثمانيون على الطوائف غير الإسلامية، فكانت الدولة قد نظمت شؤونها منذ عهد السلطان محمد الثاني في إطار توازن سياسي تمارس خلاله الطائفية الدينية التي اعتبرت (ملة). وتبعاً لهذا النظام كان جميع الرعايا العثمانيين من غير المسلمين ينظمون في طوائف حسب مذاهبهم الدينية وليس حسب المكان الذي ينتمون إليه، ويرعى كل ملة رؤسائها الروحيون الذين يفصلون بالأحوال الشخصية (إرث–زواج)[9] كما يعتبرون الممثلين لأبناء طائفتهم لدى السلطات العثمانية. واعترفت الدولة العثمانية بزعماء الملل المسيحية واليهود الذين تختارهم طوائفهم وفقاً لقوانينها الخاصة، على أن يقترن الاختيار بصدور البراءة السلطانية وأوكلت إليهم أمر طوائفهم، فشكل في نهاية القرن الثامن عشر وغضون القرن التاسع عشر منفذاً للدول الاوروبية لتعميق الخصومات المحلية ودعمها بمفاهيم أوروبية تشجع على الانفصال عن الدولة العثمانية وسياستها. ولا سيما بعد أن أسفر التغلغل الأوروبي بشتى أشكاله عن تحولات اجتماعية وعلاقات جديدة بين مختلف فئات المجتمع.

أن انتفاضات اواسط القرن التاسع عشر (1840–1860م) ارتبطت عواملها بشكل اساسي بآثار التغلغل الاوروبي وسيطرته ومد نفوذه على القوى المحلية المنتجة على مستويين: مستوى الفلاحين بعلاقتهم بالمقاطعجيين موارنة ودروز، ومستوى الطوائف الدينية من مسيحيين ودروز ومدى استجابتها لمتطلبات هذه الدول على الصعيدين: الاقتصادي والإيديولوجي[10].

وبالرغم من كل الحريات التي أعطتها الدولة لرعاياها من غير المسلمين وفق خط التنظيمات الخيرية الممثل بخط شريف كلخانة/1839م، وخط شريف همايوني/1856م. وما نتج عنه من تدخل الدول الأوروبية وظهور المسالة الشرقية والتي أدت إلى زيادة ترابط الطوائف المسيحية ذات المذهب الواحد مع بعضها البعض من جهة ، ومع الدول الداعمة لها من

---

[5] – وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية–السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860–1920م) معهد الإنماء العربي، ط3، بيروت 1982، صـ41.

[6]– عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، 1297هـ / م، أربعة أجزاء، ج1، ص21.

[7]– دونالد كوترات: الدولة العثمانية/1700–1992م/، تعريب أيمن الأرمنازي، مكتبة العبيكان، ط1 الرياض، 2004م ، صـ126

[8]– وجيه كوثراني : المرجع السابق نفسه، ص30.

[9]– محمد سالم الرشيدي: محمد الفاتح ، دار البشير للثقافة ، ط2 مصر 2013م، ص128.

[10]- وجيه كوثراني: مرجع سابق، ص41.

جهة أخرى، إلا أن الدولة كفلت لنفسها ولاء البطاركة وذلك بإسقاط أسماء المرشحين الذين تشك السلطنة في ولائهم من قائمة الانتخابات[11].

2-المسألة الشرقية وأهدافها:

في أوائل القرن التاسع عشر ولدت قضية دولية وسياسية محورها مسيحيو الشرق، وكان من أهم أسبابها التحولات الكبرى التي شهدتها تلك المنطقة، حيث كان الصراع الفرنسي-البريطاني للسيطرة عليها وما استتبع ذلك من النزاع بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية من أهمها[12]. وجاء هذا الصراع لسّد أطماعها وتحقيق آمالها في السيطرة على ولايات الدولة العثمانية[13].

فقد استطاعت الدول الأوروبية الدخول الى جسم الدولة العثمانية والتغلغل بين ولاياتها والاندماج مع شعوبها عن طريق الامتيازات التجارية التي حصلت عليها من السلطنة العثمانية. وكان لهذه الامتيازات هدفين اساسيين الأول: إقامة علاقات تجارية. والثاني والرئيسي حماية المسيحيين في الشرق وتقسيم البلاد العثمانية فيما بينها " تركة الرجل المريض"[14].

واتخذت الدول الاوروبية لتحقيق هدفها أسلوب تحريض الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية كي تتدخل وتغزو في الوقت المناسب، فاتبعت أسلوب التأثير الحضاري في السكان المحليين[15]. فمهدت لخلق الأزمات الطائفية التي عرفتها الولايات العربية ومثال عنها الفتن التي حصلت في المناطق اللبنانية جميعها والتي فتحت الباب أمام الطوائف المسيحية بالتوجه نحو الدول الأوروبية. مما زاد الهوة بين الحاكم و المحكوم. لذلك عادت الدولة العثمانية الى تنظيم العلاقات بين الطوائف المسيحية حرصاً منها على عدم إثارة نزاع طائفي يستجر في أعقابه خطر التدخل الأجنبي[16]. فأصدر السلطان عبد المجيد الثاني عام /1839م/ إدارة (سنية) تقضي بحل الخلافات الطائفية إذ ظهرت بين طائفتين عن طريق رؤساء الطائفتين المتنازعتين فقط دون الحاجة الى تدخل طرف ثالث، والهدف من هذه الخطوة بنظر الدولة العثمانية الحد من التدخل الأجنبي ومخاطره ثم نظمت شؤون مختلف الطوائف غير الإسلامية[17].

---

[11]- عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية ولاية سورية (1864-1914م) ، مصر 1969م، صـ30

[12]- باسم الجسر: الصراعات اللبنانية والوفاق(1920-1975)، دار النهار للنشر، بيروت 1981، صـ132.

[13] يعتقد أن بدء استعمال مصطلح " المسألة الشرقية" كان في أثناء انعقاد مؤتمر فيرونا(Verona) ليشمل المشكلات الدولية التي ستنتج عن انحلال الامبراطورية العثمانية. للاطلاع: الأمير شكيب أرسلان: مدونة أحداث العالم العربي 1800-1950م، إشراف وتحرير يوسف إيبش وتوما عريضة ويوسف خوري، الدار التقدمية، ط2، بيروت 2011، ص14.

[14] استعملت العبارة الشهيرة" الرجل المريض" لأول مرة من قبل القيصر نقولا عام 1853م.للدلالة على الدولة العثمانية، وذلك أثناء اجتماعه بالسفير البريطاني السير جورج هملتون سيمورSeymour في مدينة سانت بطرس بورغ. للاطلاع: المرجع السابق نفسه، ص34

[15] – محمد مصطفى الهلالي: السلطان عبد الحميد الثاني بين الانصاف والجحود، دار الفكر، دمشق2004م،ص33.

[16]- عادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج4، بيروت 1960، صـ113-114

[17]- عبد العزيز محمد عوض: مرجع سابق، صـ301.

ويلاحظ أن نظام الملل العثماني الذي استهدف تنظيم العلاقة بين الطوائف شكل منفذاً للدول الأوروبية على الصراعات الطائفية المحلية وتلقينها بمفاهيم أوروبية انفصالية و أسفر هذا التغلغل الأوروبي عن تحولات اجتماعية وسياسية وظهور علاقات جديدة بين القوى المنتجة والفئة الحاكمة[18].

والذي زاد الأمر سوءاً هو العلاقات التي قامت بين الدول الأوروبية والسلطنة العثمانية عبر الامتيازات الأجنبية والتي بدأت بالامتياز الذي منحه سليمان القانوني لملك فرنسا /1535م/. وعرفت بمعاهدة (الامتيازات الأجنبية) وكان الغرض منها الحصول على امتيازات تجارية[19] في الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية قوية وأخذت تتحول هذه الامتيازات في الفترات اللاحقة الى ورقة للضغط على السلاطين العثمانيين الضعفاء وتحويل هذه الامتيازات الى إصلاحات إدارية وامتيازات تؤهل حامليها التدخل في شؤون الدولة العثمانية و تسعى للفصل بينها وبين رعاياها وذلك عن طريق البعثات التبشيرية الدينية.

وقد نال الموارنة حظاً وفيراً من الحماية الفرنسية بسبب العلاقة التاريخية القديمة والدينية التي تربط كلا الطرفين ببعضهما البعض. وأدوا فيما بعد دوراً هاماً في تاريخ التوازن في جبل لبنان[20]. وساعدهم في ذلك نظام الملل الذي كان عائقاً كبيراً في طريق تمازج أبناء الطوائف اللبنانية المختلفة، حيث ظل المسلمون يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم، والمسيحيون يشعرون بغربتهم لأنها اعتبرتهم رعايا[21]. وبرزت من خلال ذلك الأطماع الاستعمارية في المنطقة، وبدأ التحضير لجعل الطوائف المسيحية واليهودية عامل تفجير آخر ضد السلطنة[22]، بحيث عرف القرن التاسع عشر وهو عصر الاستعمار، الكثير من الحركات الطائفية الرامية الى إيجاد أوطان طائفية في ظل الدولة العثمانية والتي كانت حينها في أوج فترة ضعفها وانهيارها.

وكانت تتلخص المسألة الشرقية في كيفية حل المشكلة التي ستنشأ دون ريب فيما لو بقيت حدود الإمبراطورية العثمانية تتراجع. وهذا بدوره سيهدد مصالح تلك الدول الاوروبية وتجارتها العابرة لأراضي السلطنة العثمانية. فلذلك تزعمت بريطانيا القوى المناهضة والمعارضة لأي تغيير يحدث داخل كيان الدولة العثمانية ويضر بمصالحها، وشكلت معاهدة خونكار–إسكله سي[23] نقطة تحول بالسياسة البريطانية من المسألة الشرقية. التي نشأت عن توسع محمد علي والي مصر علي بلاد الشام وسيطرته على المرافئ التجارية الهامة التي تقع على طريق الهند التجارية، لذلك قررت أخذ زمام المبادرة والوقوف الى جانب السلطان العثماني ضد التحالف الفرنسي –المصري، والتقارب الروسي– العثماني معتقدتاً أنها بتقاربها هذا سوف تحد من الاطماع الروسية بأراضي ومضائق الدولة العثمانية.

---

[18] مسعود ضاهر، الانتفاضات ضد النظام المقاطعجي، دار الفارابي للنشر، ط1، بيروت1988م، ص28، ص35.

[19]- أحمد عزت عبد الكريم: العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر (الفصل الثالث من كتاب–دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة–القاهرة) مقدمة حوادث دمشق اليومية، القاهرة/1959م.صـ114.

[20]–وجيه كوثراني: مرجع سابق، ص34.

[21]– علي عبد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفارابي، ط1، بيروت2013م، صـ29.

[22] وجيه كوثراني : مرجع سابق، ص45.

[23] وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا عام 1249هـ/ 1833م. وهي معاهدة دفاعية هجومية، تعهدت بها روسيا الدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم ليكون لها بذلك سبيل في شؤون الدولة الداخلية. انظر محمد فريد بك المحامي : مرجع سابق، ص451.

وقد عبر الكثير من القادة الأوروبيين عن خشيتهم من انهيار الدولة العثمانية وما سينتج عنه من تهديد للسلم الإقليمي وزرع الفوضى التي لا تحمد عقباها. لذلك اتفقوا فيما بينهم على الحرص على وحدة كيان الدولة العثمانية ومنع اي قوة ناشئة بالظهور، وقد صرح وزير خارجية بريطانية أمام مجلس العموم البريطاني عام1833م. بالمرستون:" إن سلامة الدولة العثمانية واستقلالها ضروريان لأجل المحافظة على السلم والحرية وتوازن القوى لبقية أوروبا"[24].

ويمكن القول بأن مواقف الدول الأوروبية كانت تتلخص في إجماع هذه الدول على أن مصلحتهم المشتركة تقضي بترك بنية الدولة تتصدع من الداخل شريطة ألا يؤدي هذا التصدع الى الانهيار التام إن صح التعبير. لذلك تسارع بعض ملوك أوروبا للحصول على امتيازات خاصة لرعاياهم الأجانب والمواطنين المسيحيين الذين ينتمون للدولة العثمانية، ونظام الامتيازات هذا يحد من سلطة الدولة العثمانية بآثاره وشروطه المجحفة بحق تلك الدولة الضعيفة والمتصارعة من الداخل والمتماسكة إلى حدٍّ ما من الخارج.

3- دور الامتيازات الاجنبية في ظهور حركة التنظيمات العثمانية:

يعول المؤرخ التركي محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية ، انهيار الدولة العثمانية لعدة أسباب أهمها نظام الامتيازات الأجنبية التي كانت تمنح للأجانب اعتباطياً و بسخاء وكرم لا مبرر لهما بل كانت تمثل التفريط بحق الامة الاسلامية في أقبح صورها، فقد منحت الدولة العثمانية، وهي في أوج عظمتها وسلطانها، امتيازات لدول أجنبية جعلتها شريكة معها في حكم البلاد [25]، و قال محمد كرد علي في ذلك:((منح محمد الفاتح الروم[26] امتيازات مذهبية فأحدث بذلك دولة في دولة وارتكب خطأ فاحشاً، وعوضاً عن أن يجعلوا المملكة متجانسة صيروها كبرج بابل))[27] ومن المعروف أن منح الامتيازات الأجنبية لم يكن مرفوضاً آنذاك ولا ينتقص من سيادة الدولة العثمانية. ولكن مع الوقت تحولت تلك الامتيازات الى قيود تكبل السلطنة داخلياً وخارجياً.

فقد منحت للأجانب سبيلاً للتدخل في شؤون الدولة الداخلية فأصبحت تلك الامتيازات في فترة ضعف السلطنة وضعف سلاطينها أحد الاسباب في انهيارها وبعد ذلك انقراضها، حيث كان الأجانب المقيمون في ربوع الإمبراطورية العثمانية يتمتعون بامتيازات تجارية خاصة واقتصادية ضمنتها لهم الدولة بموجب اتفاقيات مبرمة مع ملوك أو حكومات الدول التي ينتمي اليها هؤلاء الأجانب. ونتيجة للتدخل الاوروبي في شؤون السلطنة الداخلية وتولي هذه الدول شؤون رعاياها والاشراف على أمورهم كافة بعيداً عن القوانين والتشريعات التي وضعتها الدولة العثمانية لرعاياها، نشأت مرحلة جديدة في حياة الدولة العثمانية وهي مرحلة التنظيمات الخيرية[28] والتي اعتبرها المؤرخين العرب والمسلمين والمستشرقين على حدٍّ سواء،

---

[24] عبد الرؤوف سنو: المصالح الالمانية في سوريا وفلسطين 1841-1901م، معهد الانماء العربي، بيروت، 1987م، ص18.

[25]- محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق،ص732.

[26] يقصد بالروم هنا : سكان الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية الذين امنهم السلطان محمد الثاني الملقب "الفاتح" على انفسهم واموالهم و أعراضهم ودعا الفارين منهم للعودة الى منازلهم وذلك بعد فتحه مدينة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية عام 1453م. محمد سالم الرشيدي: مرجع سابق، ص123.

[27]- محمد كرد علي: خطط الشام، ج3، مطبعة النوري، دمشق، 1983م، ص159.

[28]- هي اصطلاح مأخوذ من قانون" تنظيم أتمك"، ويقصد بها الاصلاحات التي أدخلت على أداة الحكم والإدارة في الدولة العثمانية من مطلع عهد عبد المجيد الثاني، وقد استهلت بالقانون المعروف بصفة عامة باسم خط شريف كلخانة، وورد اصطلاح تنظيمات خيرية لأول مرة في السنوات

عبارة عن محاولات غربية للإصلاح نتيجة الضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية، فقد كان هدفها الاساسي" الدفاع عن حريات الطوائف العثمانية" [29]، ويكفي أن نلاحظ على سبيل المثال مسألة الحقوق التي طالبت بها الدول الأوروبية للملل في الدولة العثمانية.

وبصدور قانون خط همايوني/1856م. الذي أعلن "مبدأ المساواة بين جميع الملل في الامبراطورية"[30]وبالرغم من إعلان هذا المبدأ إلا أن الحكومة لم تستطع أن تطبقه تطبيقاً مطلقاً فظلت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين وغيرهم بينما دفع المسيحيون الجزية. كما ظلت الوظائف العامة كالإدارية والقضائية محصورة في يد المسلمين[31].

وهذا ما أدى الى زعزعة كيان الدولة من الداخل وحدوث شرخ كبير بين الطوائف الدينية الموجودة فيها، فبدلاً من اندماجها في المجتمع العثماني اندماجاً تاماً، أدت التنظيمات العثمانية ونظام الملل الى تعميق الهوة بين المسلمين والمسيحيين، وزيادة النشاط الأوروبي بمختلف مجالاته في الولايات العربية، ولا سيما بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية، ويرى بعض المؤرخين أمثال المؤرخ الفرنسي تومان(THoumin) أن مذابح لبنان /1860م. والتي سيرد ذكرها– ترجع في أسبابها غير المباشرة الى التنظيمات العثمانية التي احتوت على مفاهيم غربية مثل" وطن" التي تضمنها خط كلخانة بدلاً من" الأمة" فكانت هذه أولى الخطوات نحو فصل الدين عن الدولة [32].

أما الامتيازات فقد ساهمت الى حد بعيد بنشر الفرقة والبغضاء بين أبناء الشعب الواحد وأدت الى التناحر فيما بينهم بسبب تدخل الدول الأوروبية من خلال استخدامها للمكاسب التي حصلت عليها من تلك الامتيازات من وصاية وحماية للرعايا المسيحيين، حتى أن القنصليات الأوروبية جعلت من المسيحيين العثمانيين مواطنين متميزين عن الآخرين، يتمتعون بحقين: حق الانتماء الى نظام الملل العثماني، وحق الوصاية الاوروبية.

مع العلم أن هذه الامتيازات لم تكن جديدة على الدول الاوروبية ورعاياها. ولكن لم يكن لها أي تأثير في حياة الدولة العثمانية أثناء قوتها وقوة سلاطينها، وإنما فترة الضعف والانحدار التي وصلت إليها الدولة العثمانية هي التي ساعدت على تدخل الدول الاوروبية وزيادة نشاطها، والذي تمثل بالجانب الديني وما حصلت عليه الدول الاوروبية من مكاسب لإنشاء المدارس الخاصة وازدياد نشاط الإرساليات التبشيرية التي وضعت بين أيديهم سبل تطوير تربوي وعلمي كما سنرى في

الاخيرة من حكم السلطان محمود الثاني، أما نهاية عهدها فكانت حوالي عام/1876م. عندما بدأ حكم السلطان عبد الحميد الثاني. وتلك التنظيمات بمفاهيمها الجديدة ساعدت على إرساء قواعد وأسس الدولة على أساس المبادئ الأوروبية ، وعرفت باسم التنظيمات الخيرية لأنها امتازت عن غيرها بتنظيم أمور الدولة في المجالات كافة، و أهم ما جاء فيها الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية، وأكدت على المساواة بين جميع أصناف رعايا الدولة مع استمرار الامتيازات للطوائف غير الاسلامية ، وسمح لغير المسلمين بإشغال وظائف هامة في أجهزة الدولة. للاطلاع: الامير شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص44.

[29]– قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم،ط2،بيروت،2003م، ص39.

[30]–وهو إحدى المبادئ التي نص عليها الدستور في فترة التنظيمات العثمانية، فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة أياً كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوي كل العثمانيين أمام القانون وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات . ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على ان يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلقة بشؤونهم الدينية. للاطلاع: علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الاسلامية ،ط1، القاهرة ،2001، ص404.

[31]– محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي/1514–1914م. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص218.

[32] محمد أنيس: مرجع سابق، ص219.

التبشير الديني، والأدهى من هذا وذاك أن تأثير التغريب بلغ النخبة العثمانية مسيحيين ومسلمين، وإن كانت الفئة المسلمة بقيت متمسكة بإسلامها، بالرغم من انتشار التعليم الأوروبي وأفكار النهضة الفكرية في أوروبا.

وبالنظر الى التنظيمات وأثارها وما نتج عنها يسمح بإقامة علاقة وثيقة بينها وبين نظام الامتيازات الأجنبية. ذلك لأن التنظيمات هي نتيجة طبيعية للأولى. ولولا الامتيازات الأجنبية وما مارسته من ضغط داخلي وخارجي والضعف الذي أصاب جسد الدولة العثمانية وسلاطينها نتيجة التفتت والاقتتال وغياب مقومات التفوق وعدم مواكبة التطور الأوروبي لما تم فرض التنظيمات.

4-الدول الاوروبية وموقفها من الامتيازات الاجنبية:

يشير المؤرخ التركي يلماز أوزوتونا الى معاهدة الامتيازات:" إنها معاهدة مساعدة لتنمية فرنسا عسكرياً واقتصادياً والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانية وإسبانية. ولهذا منح الديوان الهمايوني فرنسا بعض الامتيازات التجارية التي من شأنها تقويتها ببعض الميزات التي لم يعترف بها لغيرها من الدول"[33].

وكانت علاقة هؤلاء التجار الفرنسيين علاقة وثيقة مع التجار المسيحيين المقيمين في ولايات السلطنة، ومن هنا تنبهت فرنسا إلى دور مسيحيو لبنان الموارنة وخاصة سكان جبل لبنان، العاملين في زراعة أشجار التوت لتربية دودة القز والاستفادة من شرانقها من أجل صناعة خيوط الحرير. لذا تدفقت الأموال منها لدعم تلك الصناعة[34]، بالإضافة الى دعم شبكة البعثات التبشيرية والإرساليات الدينية، وخلق نخبة تجارية ذات تعليم فرنسي[35]، كما أدت هذه الأوضاع الاقتصادية، إلى تعميق أزمة مجتمع الجبل، وتحريك التوتر الطائفي الكامن وذلك أن أغلب التجار الكبار المرتبطين بشكل وثيق بالدول الأوروبية هم من المسيحيين[36].

وغدت الطائفية ذات ارتباط وثيق في كل ما يتعلق بالشؤون الاقتصادية كالإنتاج وعلاقاته وتقسيم العمل الاجتماعي، وأصبح العامل الطائفي يعزز بالضرورة زعامات طائفية، سواء أكانت دينية أم مدنية. رغم ذلك لم تظهر أي خلافات طائفية ذات طابع ديني مباشر من الخارج، ولكن عن طريق تدخل الإرساليات الأجنبية ووسائل الحماية والوصاية عبر التجار والقناصل، بهدف تمزيق السلطنة العثمانية، وإيجاد موطئ قدم لها في عقر دارها[37].

ومارست دوراً كبيراً في إظهار الفرقة اللبنانية على أساس طائفي، حيث تقاسم زعماء الطوائف النفوذ فيما بينهم وأقاموا تحالفات سياسية مع ولاتهم وأمرائهم لتعبئتهم في صراعات داخلية[38]. نالت رضا الدولة العثمانية، حيث رحبت بكل

---

[33]- يلماز أوزوتونا: موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري/1231-1922م، ت. عدنان محمود سليمان، المجلد الأول، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت،2010م،ص276.

[34] أسس الإخوة نقولا وجورج بورطاليس Portalis أول معمل لحل الحرير في لبنان في الشوف. وكان الكونت الفرنسي لافرته Conte de la Ferte قد انشئ في بيروت سنة 1836م. معملاً لحل الحرير على الطريقة الأوروبية. للاطلاع: الأمير شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص23.

[35] D.chevalier: Aspects Sociaux de la question d'orient:aux origins des troub les agraires,auIiban en 1858, janvier,Mars-1959-p35-37)

[36] Cheralier: lyon la Syrie en 1919: les bases d'une intervention reue historique ،Octobre-Decembre ,Paris-1960-p201.

[37] مسعود ضاهر: مرجع سابق،س صـ119

[38]- علي عبد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، مرجع سابق، صـ36

الصراعات التي من شأنها زعزعت الجبل عملاً بسياستها[39]، ولقد برزت مواقف الدول الأوروبية المضادة لرغبة السلطنة في إلغاء الإمارة اللبنانية وإلحاق جبل لبنان بالحكم العثماني المباشر وتوحيد نظامه السياسي والضرائبي والتربوي والإداري مع بقية مقاطعات السلطنة[40] باندلاع الحرب في جبل لبنان عام /1841م/ بين الدروز والموارنة وكانت هذه الحرب نتيجة حتمية لأطماع الدول الأوروبية متمثلة بفرنسا وانكلترا [41]والنمسا وروسيا. و ورقة ضغط كبيرة على السلاطين العثمانيين للقيام بالتنظيمات العثمانية في بعض الولايات التابعة لها.

فالفرنسيون كانوا يخططون لحكم ماروني في الجبل والسعي لاعتبار البحر المتوسط بحيرة فرنسية، وليست صدفة أن يصف نابليون سوريا بأنها ((مفتاح أسيا))[42]معتمداً بوصفه هذا على الاعتبارات والتيارات السياسية المتنوعة التي عمت الشارع الفرنسي مطالباً بإعلان سوريا" فرنسا الشرق"[43] . وقبل عام /1840م/ لم يكن للنفوذ الفرنسي أي منافس تقريباً في المنطقة.

وكانت فرنسا تتوسل لترسيخ هذا النفوذ، مسألة حماية الملل المسيحية الكاثوليكية، وجبل لبنان من خلال وجود الطوائف الكاثوليكية فيه بكثافة والذي ساعد فرنسا في تسللها الى المنطقة النظام المللي والامتيازات التي حصلت عليها من السلاطين العثمانيين مما أدى الى ازدياد النفوذ الفرنسي بموجب هذه الامتيازات عن طريق ((حماية الأقليات المسيحية))، وأخذت فرنسا عن طريق ((معاهدة الامتيازات)) تنمي مصالحها في بلاد الشام، إذ كانت أقوى دولة كاثوليكية في أوروبا اعتبرت نفسها حامية الموارنة[44] وهم آنذاك الطائفة الوحيدة في المنطقة المتحدة مع روما وعلى مر العصور توثقت عرى الصداقة بين الموارنة وفرنسا، من خلال الدعم الفرنسي لفخر الدين المعني الثاني وعلاقة الشهابيين مع فرنسا– حيث أصدر حكام فرنسا تعهدات جديدة بحماية الموارنة ومساندة((صديقهم القديم أمير الجبل))[45].

بينما البريطانيين كانوا يخططون كي يصبح نفوذهم في جبل لبنان بوابة العبور الى فلسطين والسيطرة على طريق التجارة العالمية الواصلة إلى الهند، أما دور القوى السياسية والعسكرية العثمانية فلم يتجاوز صوغ القرار السياسي العثماني، لكنها

---

[39]– أنطوان العقيقي: ثورة وفتنة، بيروت 1939، صـ6

[40] –Adel Ismail:Documents dip lomatiques et consulaires relatifs, p 282-283

[41] يذكر البطريرك الماروني أنطوان عريضة في وثائق لبنان وفرنسا عن التنافس بين بريطانيا وفرنسا لكسب ود الطوائف المسيحية في لبنان فيقول:" ففي عام 1840م. لم تنجح تهديدات السيد ريتشارد وود(سفير بريطانيا لدى الدولة العثمانية) للبطريرك الماروني حبيش، وكذلك الأحداث الدامية التي تلت، لم تنجح في إبعاد سيد بكركي عن فرنسا) للاطلاع: البطريرك أنطوان عريضة: لبنان وفرنسا(وثائق تاريخية أساسية تبرز دور بكركي في مواجهة الانتداب الفرنسي والاحتكارات الفرنسية) ترجمة فارس غصوب، مراجعة مسعود ضاهر، دار النشر الفارابي، ط1، بيروت 1987م.ص68.

[42]– محمود عامر:" أهمية المصادر العثمانية لفترة النشأة من خلال الدفاتر والفرمانات ودفاتر المهمة"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد77– 78، ك1 وحزيران 2002، ص165،ص182.

[43]– زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت،1971م، ص33.

[44]– محمد زعيتر: المشروع الماروني في لبنان، جذوره وتطوراته، الوكالة العالمية للتوزيع، بيروت 1986، ، صـ78.

[45]– زين نور الدين زين: مرجع سابق ، ص34

كانت في مرحلة الضعف الشديد وكانت الدبلوماسية العثمانية أسيرة الشعارات التي أطلقها الدبلوماسيون الأوروبيون عن إنصاف المسيحيين في أرجاء السلطنة كافة[46].

ولم يكن دور النمسا بعيداً عن هذه الأحداث وذلك من خلال ما أبدته حيال موقفها الذي تبنى تقسيم إمارة جبل لبنان الى قائمقاميتين (مارونية– درزية) وسياستها الرافضة لمفهوم الدولة –الأمة الواحدة– وتبني السلطات المحافظة في المجتمعات المركبة حيث تمثلت سياستها بممثل إمبراطور النمسا مترنيخ[47] الذي أولى المسألة الشرقية اهتماماً متصاعداً وقال عن جبل لبنان ((ذلك البلد الصغير المهم الى ذلك الحد))[48] ونرى تركيزه على دور جبل لبنان ودعوته الى احترام الامتيازات التقليدية للسكان واعترف للبطريرك الماروني بدوره الكبير في استقرار المنطقة، ناهيك عن حثه ليبقى مسالماً ريثما يتم الحصول على ضمانات ملائمة ضمن الأقبية الإدارية[49]. والأهم من ذلك المبلغ الذي تبرع به مترنيخ ليوزع على المسيحيين[50].

أما الدبلوماسية الروسية فقد كان هدفها في شرق المتوسط مخالفاً تماماً لسياسة من سبقها من الدول الأوروبية فقد كان يصب في تقوية الإدارة العثمانية في ولايات بلاد الشام وإضعاف موقف كل من بريطانيا وفرنسا، و كان ((بازيلي)) القنصل الروسي في بيروت، من أبرز مهندسي هذه السياسة، وبموجب معاهدة قينارجه[51] استطاعت روسيا أن تكون حامية للرعايا الروم الأرثوذوكس وأخذت كذلك حق بناء كنيسة عامة في استانبول، بالإضافة الى هذا فإن الدولة العثمانية وافقت على السماح للرعايا الروس أن يؤدوا فريضة الحج الى القدس، و تعهد السلطان بأن يقوم دوماً بحماية اتباع الدين المسيحي والكنائس المسيحية. على الرغم من الغموض الذي يكتنف هذه الحماية في نص المعاهدة– فقد سنحت أمام روسيا فرصة مؤاتية للتدخل في شؤون البلاد الإسلامية وفق مصالحها ورغباتها بالانتقام لمملكة بيزنطة.

5–دور المبشرين يعزز الانقسام الطائفي في جبل لبنان:

بدأ التدخل الأوروبي في شؤون المشرق العربي بعد الامتياز الذي منحه سليمان القانوني لملك فرنسا/1535م/. كما ذكرنا سابقاً– وكان الغرض منه الحصول على امتيازات لأغراض التجارة.

وسارت على نهجها انكلترا فمع نهاية القرن السادس عشر استطاعت الملكة اليزابيث[52] الحصول على امتياز تجاري وبشكل رسمي من السلطان العثماني للتجارة في بلاد الشام ودخول سفنها تحت العلم البريطاني الى موانئ السلطنة العثمانية في

---

[46] Adel Ismail.t;7.p238.

[47] دي مترنيخ: سياسي نمساوي شهير ولد سنة/1773م. عين سفيراً للنمسا في باريس عام/1806م. انتخب رئيساً لمؤتمر ويانه عام/ 1814م الذي عقد لتسوية أوروبا بعد سقوط نابليون. اشتهر بأنه داهية أوروبا في زمانه وبمعارضته لانتشار الحرية في أوروبا . اعتزل العمل السياسي بعد حركة عام/1848م. العمومية وبقي في العزلة إلى أن توفي سنة/1859م. للاطلاع انظر: محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص457.

[48] عصام خليقة: وثائق لبنانية من الأرشيف العثماني (1841–1913)، دار نوفل للنشر، بيروت، 2008، صـ20 .

[49] مصطفى خالدي وعمر فروخي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها ط1، بيروت 1953م، صـ144

[50] المبلغ وكان قدره /300الف قرش/، للاطلاع انظر عصام كمال خليفة، مرجع سابق ، صـ21

[51] محمد زعيتر: مرجع سابق صـ176.

[52] الملكة اليزابيث الاولى ، ملكة انكلترا استمر حكمها مدة /45 سنة من عام/1558–1603م.عرف عهدها بالعهد الاليزبيثي لما حققته من نجاحات على الصعيد العسكري بانتصارها على الاسبان وتدمير اسطولهم الارمادا عام 1588م، وعلى الصعيد الدبلوماسي والاقتصادي بتوقيعها معاهدة عام 1589م مع السلطان العثماني وهي عبارة عن معاهدة تجارية حددت فيها الحريات والحقوق الممنوحة للجاليات الانكليزية على أرض

عام1589[53]. والتي كانت تهتم بالشأن السوري مثلها مثل فرنسا حيث كان التنافس للسيطرة على سورية وسواحها تنافساً شديداً وعلنياً من أجل تثبيت نفوذهما فيها[54]. فتارة أخذ هذا التنافس طابعاً دينياً وتارة اخرى أخذ طابعاً سياسياً ووصل في أحيان كثيرة الى مواجهات عسكرية بين الطرفين. كتدخل الدول في شؤون جبل لبنان بعد فتنة عام /1860م/. ومساندة فرنسا لموارنة الجبل حيث أصر نابليون الثالث على بقاء الجيش الفرنسي في سورية، لكن انكلترا رفضت ذلك وأرغمته عام /1861م/ على الخروج[55]، وقبل ذلك كان الدعم الكبير الذي لقيه محمد علي وابنه ابراهيم باشا أثناء دخوله لبلاد الشام من قبل فرنسا والرفض التام لإنكلترا لهذا الوجود والخوف من قيام دولة قوية تحل مكان الدولة العثمانية الضعيفة والمنهارة، تسيطر على طرق التجارة العالمية خاصة طريق الهند التجارية أهم الطرق بالنسبة لبريطانيا.

كل هذه الأحداث كان هناك عنصر خفي وراءها وله الدور البارز في تلك الأحداث الدامية التي وقعت في معظم ولايات الامبراطورية العثمانية عامة وجبل لبنان بشكل خاص[56] وهو المبشرين الذين أدوا الدور الأساسي في مجرى الأحداث الذي وقع في لبنان وجبله[57].

لقد كانت الدولة العثمانية على حق في خوفها من هؤلاء المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرون الفتن في إمبراطوريتها، بل كانوا أيضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً. وكذلك كانوا يفرقون السكان بمعسكرات.

فقد كان الدروز مثلاً يعتمدون على حماية انكلترا ويفضلون المدراس الأمريكية[58]. أما الموارنة فكانوا يرون حليفهم الطبيعي في فرنسا ويفضلون المدارس الفرنسية وكانوا يتلقون السلاح من فرنسا بينما مدت انكلترا الدروز بالسلاح[59] وعبثاً استطاع المبشرون التأثير في البيئة الإسلامية، لذلك وجهوا اهتمامهم الى البيئة المسيحية يثيرون الخلاف في طبقاتها وبين اهل مذاهبها لما تربط بعضهم علاقات قديمة ومصالح مشتركة[60].

فما أن جاء المبشرون البروتستانت الى سورية حتى وقف رجال المذهب الماروني والمذهب الأرثوذكسي موقف الدفاع الشديد. فإن البطريرك الماروني" هدد كل ماروني يقترب من البروتستانت أو يعاملهم أو يؤجرهم سكناً أو يزورهم أو يلبي

السلطنة العثمانية. للاطلاع ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في العهد العثماني في القرنين /16,17م/،ج1، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1989م. ص317.

[53] خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، ترجمة محمد الارناؤوط، دار المدار الاسلامي، ط1، بيروت2002 ، ص215.

[54] مصطفى خالدي وعمر فروخي: مرجع سابق، صـ133.

[55] الامير شكيب أرسلان ، مرجع سابق ، ص38

[56]– مصطفى خالدي وعمر فروخي: مرجع سابق ، صـ136.

[57] علي عبد المنعم شعيب ، التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفارابي، ط1،بيروت2005م . ص161–162.

[58] هذا ما أكده القنصل البريطاني في بيروت الكولونيل روز، في أحد تقاريره المرسلة الى وزارة الخارجية البريطانية جاء فيه:" أن الموارنة –في لبنان– مستسلمون نفساً وجسداً الى فرنسا... وعليه فلم يبق لبريطانيا أن تختار في الأمر بل أمسى من المحتم عليها مساندة الدروز". للاطلاع : الامير شكيب أرسلان، مرجع سابق، ص29.

[59] Jeesup.filly.three years in Syria,by Henry Harris Jessup, n.Y 1910.p.15

[60] البطريرك أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص 45–46.

طلباً أو يساعدهم على البقاء في البلاد الحرمان"[61] ولم يكتف الإكليروس الماروني بحث اتباعه على الابتعاد عن البروتستانت بل أنه كان يحمل أتباعه على اضطهاد أهل المذاهب المسيحية الأخرى. وخصوصاً بعد أن طمع البطريرك الماروني ببسط سلطة زمنية على جبل لبنان[62].

نجد أن المنافسة بين المبشرين البروتستانت واليسوعيين في خلق الاضطرابات كانت على أشدها وكانوا كلما احتدم الصراع يدعمونهم بالسلاح ومن ثم يقفون متفرجين الى ما ستؤول إليه الاوضاع، وتشير بعض الكتب الى اشترك نفر منهم في تلك الأحداث الدامية كالراهب اليسوعي فردنياندو بونا شبتا الذي قتل في عام /1860م. في اضطرابات مدينة زحلة بعد أن قتل سبعة من الدروز[63].

وخلاصة القول عن حوادث عامي 1840م/1860م الدامية والتدخل الأوروبي بشكل مباشر أو غير مباشر فيها ساهم الى حدّ كبير فيما آلت إليه الأوضاع في لبنان وما جرته عليه وعلى طوائفه من حروب وفرقة ونقمة ما زالت مستمرة حتى يومنا الحالي. بالرغم من الحروب والفتن التي بثتها الإرساليات بين اللبنانيين إلا أن صلة الموارنة بالكنيسة الكاثوليكية كان لها أثر ايجابي حيث زودتهم بتأييد سياسي خارجي لم تعرف الطوائف اللبنانية الأخرى مثله. على أن الوجه الثقافي من هذه الصلة لم يكن أقل أهمية من الوجه السياسي. فكثير من الذين تخرجوا من المعهد الماروني في روما عادوا الى لبنان كرهبان[64]، وراحوا ينشئون المدارس في القرى لنشر التعليم بين أبنائها، وكانت تلك المدارس الجديدة تقف الى جانب المدارس المرتبطة بنظام المعارف العثماني. ولقيت إقبالاً كبيراً من ابناء العائلات الاقطاعية والاعيان والتجار والاثرياء وكبار الموظفين والاداريين مسلمين ومسيحيين على حدٍّ سواء، بعدما ثبت لديهم أن التحصيل العلمي في هذه المدارس يؤهلهم للحصول على مراكز عالية في الإدارة أو الجيش[65].

فغدت هذه المدارس مراكز تربوية ذات شأن تزود الأمراء الشهابيين بالكتبة والمعاونين. وأنشأت على مر الأيام طبقة من المتعلمين المسيحيين الموارنة بدعم فرنسي، تبوأت أعلى المناصب في الحياة العامة، وأملت في الكثير سياسة الإمارة ولم يكن الشهابيون وحدهم يستخدمون الموارنة كتبة ومديرين بل كانت تستخدمهم الأسر الإقطاعية الأخرى، بما فيها الدروز وفي ذلك يقول السائح الفرنسي فولني (volney)[66] على أثر زيارة قام بها لبلاد الشام في عام (1782-1785م):" كانت الفائدة الكبرى التي نتجت عن نشاط هذه الإرساليات الدينية أن فن الكتابة أصبح أكثر شيوعاً بين الموارنة، مما جعلهم في هذه المناطق بمقام الأقباط في مصر، أي انهم أصبحوا هم الكُتاب، والنُظار، والحُجاب عند الأتراك، وخصوصاً عند جيرانهم الدروز[67].

6-أحداث جبل لبنان الداخلية /1860م/ ودور الدول الأوروبية فيه:

[61] Richter A History of the protest-tant Missions in the near east,by Julius Richter(English translation adapted by the Author)N.Y.1910.p187.

[62] Jessup: p159.

[63] Les jesuites en syrie 1831-1937,12 parties en deut vols, Paris 1937,p12,17,18.

[64] كمال سليمان الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر ط7، بيروت 1991م، صـ42

[65] علي عبد المنعم شعيب، مرجع سابق، ص45.

[66] فولني: كاتب فرنسي زار سورية ومصر في اواخرالقرن الثامن عشر وكتب عنها في كتابه رحلة الى سورية ومصر.

[67] Volney. Voyage en Syrie et Egypte pendant les annees 1783,1784,1785 , Paris 1959,p.221.

كما أسلفنا سابقاً، فقد حدثت العديد من المنازعات بين الدروز وجيرانهم الموارنة ونتج عنها عدة مذابح مثل مذبحة عام /1841م/. والتي كانت سبباً في قيام القائمقاميتين عام /1842م/ والتي قضت بتأسيس قائمقامية للمسيحيين في الشمال وأخرى للدروز في الجنوب وكل واحدة يحكمها قائمقام من نفس المذهب الطائفي لهذه القائمقامية، واستمر هذا النظام سائداً حتى قامت فتنة عام /1860م/ نشبت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان فتنة تركت في نفوس الناس أسوأ الأثر الى اليوم إلا أن هذه الفتنة لم تنشب فجأة ولا اتفاقاً، وانما كان يهيأ لها خطوة بخطوة. ولقد كان مهندسوها بارعين الى حد أن الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يومذاك أن الدول الأجنبية قد هيأتها على أيدي المبشرين[68].

فبعد غزو إبراهيم باشا لسورية /1831–1832م/. وخوف الدول الأوروبية من تأسيس دولة قوية على أنقاض الدولة العثمانية تسارعت للضغط عليه للانسحاب من بلاد الشام كلها. ولكن قبل أن ينسحب /1840م/. كان الأمير بشير الثاني قد استبد بحكم جبل لبنان وأخذ يظلم الناس بطلب الأموال والجنود، عندها اتفق المسيحيون والمسلمون من سكان الجبل على مقاومة التجنيد الذي فرض عليهم من قبل حاكم جبل لبنان[69]. حينئذ لجأ الأمير بشير الى نشر بذور الشقاق بين المسيحيين والمسلمين من خلال نزع السلاح من بعضهم ونفي بعضهم الأخر فعظمت النقمة على الأمير وعلى إبراهيم باشا بسبب ظلمهم على السواء. وقد حدث في عام واحد ان انسحب ابراهيم باشا بعد اتفاق الدول الاوروبية عليه، وفرار الأمير بشير من لبنان تاركين البلاد في فوضى شديدة[70].

وتتالت الأحداث وتسارعت حيث كانت كلها تصب في مصلحة الدول الأوروبية من قدوم الأمير بشير الثالث الذي تميز عهده بالضعف والاضطرابات والفوضى، وحدوث اقتتال بين الموارنة والدروز كان مركز الصراع قرية دير القمر ذات الغالبية المارونية، عندها وجدت الدول الأوروبية الفرصة مؤاتيه لقسمة أهل جبل لبنان قسمين وإنشاء قائمقاميتين إحداهما جنوبية إسلامية والثانية مسيحية شمالية برعاية مستشار النمسا ((مترنيخ)) الذي دعا لفكرة تقسيم لبنان لقسمين جنوبي وشمالي. وأما دير القمر مصدر القلاقل الصحيح فوضعت تحت إدارة متسلم تركي.

وبذلك تحولت تلك الاضطرابات الاقطاعية الى اضطرابات دينية مذهبية وأصبح حلها غير ممكن، لأن حلها مرتبط برضى الدول الأوروبية وهذه الأخيرة لا تريد حل تلك المشكلة بل كانت تريد دوام الاضطراب في الإمبراطورية العثمانية ليتسنى لها التدخل كلما شاءت الظروف.

لم يحدث قبل مذابح الأرمن عام/1886–1895م/ حادث حفز الإرساليات التبشيرية المختلفة الى التكاتف في سبيل تنصير هذ القسم من العالم كحادث/1860م/[71] لقد كان هذا الحادث فريداً الى درجة أن بعض المبشرين والرهبان لم يكتفوا بما أثاروه من فتنة بل تدخل نفر منهم في الأمور السياسية للبلاد.

---

[68] عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى: التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834–1914م مكتبة مدبولي ط1 القاهرة 2005، صـ43.

[69] ميخائيل الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان 1179–1257هـ/ 1782–1841م. عني بنشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الاب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت،1912م ،ص101.

[70] ميخائيل الدمشقي: مرجع سابق، ص103.

[71] مصطفى خالدي، عمر فروخي: مرجع سابق نفسه، صـ141.

و تعاونت السياسة والدين لإنشاء دولة مسيحية مارونية تتبع لفرنسا سياسياً وللكنيسة الكاثوليكية دينياً داخل أراضي الدولة العربية الإسلامية[72]، حيث حققت الدول الأجنبية هدفاً عظيماً ما زال الشعب اللبناني حتى يومنا هذا يحمل تبعات تلك السياسة التي تبنتها الدول الأوروبية بشكل واضح بعد ضعف وانهيار الدولة العثمانية فنتيجة لأحداث/1860م/ تم عقد مؤتمر دولي في بيروت بمباركة الدول الأوروبية حضره المفوض السلطاني مع خمسة من وكلاء الدول ومفوضيهم، وهم روسيا وبروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا..... وقرروا : "أن تكون إدارة الجبل بواسطة متصرف يسمى من طرف الدولة العثمانية وبرضى الدول الأوروبية، وهذا المتصرف (الحاكم) يجب أن يكون مسيحياً أوروبياً ومن أتباع الكنيسة الكاثوليكية في روما، لا وطنياً سورياً مسلماً أو مسيحياً"[73].

7-الدعم الفرنسي للمشروع الماروني ودور الشهابيون والمعنيون في تطوره:

من المعلوم أن العلاقات التجارية مع الغرب أتت على أوثقها في لبنان وابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي احتلت صيدا المركز التجاري الأول بجهود فخر الدين الثاني الذي أقام علاقات وثيقة مع الغرب ثقافية وتجارية وخاصة مع حكام توسكانا وفرنسا. وبسبب ازدياد النفوذ الفرنسي بموجب هذه الامتيازات أصدر حكام فرنسا تعهدات جديدة لحماية الموارنة ومساندة ((صديقهم القديم أمير الجبل))[74].

وفي الوقت الذي وجدت فيه فرنسا في الموارنة طائفة طيعة تستطيع بواسطتهم أن تنشر نفوذها في المنطقة[75]، ووجد هؤلاء بدورهم في فرنسا حامياً قوياً لهم، فقد جرت التقاليد لدى الطرفين على اعتبار الصداقة المارونية الفرنسية في غاية العراقة، ودليل ذلك ما قام به الملك الفرنسي لويس الرابع عشر عندما منح أبناء عائلة الخازن المارونية شرف تولي وظيفة القنصل الفرنسي في بيروت، وقد بقيت هذه الوظيفة (امتيازاً) لأبناء هذه العائلة من /1655-1753م/[76] قرابة المئة عام وبقيت أسرة الخازن على ولائها لفرنسا، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، أعدم جمال باشا الشيخين فيليب وفريد الخازن، وقد كان الأول مترجماً بالقنصلية العامة لفرنسا في بيروت، وخدم الثاني فرنسا على صفحات الجرائد حيث كانت فرنسا خصصت في سنة /1700م/ اثنتي عشرة منحة دراسية لأطفال من أبناء الطوائف المسيحية الشرقية يتعلمون في مدارسها لينشئوا

---

[72] يؤكد البطريرك أنطوان عريضة على الصفة التمثيلية للبطريرك الماروني ، منذ أيام ملوك فرنسا حتى سلاطين الدولة العثمانية. حيث يقول:" لم يجرؤ أحد على الطعن بهذه الصفة ، ففي أحداث عام1861م. ورغبة من الحكومة الفرنسية بتوطيد النظام الجديد القائم في لبنان، توجهت الى البطريرك الماروني بهدف تعطيل حركة التمرد التي قام بها يوسف كرم. ونتيجة لتدخل البطريرك من مقره في بكركي، ألقى كرم السلاح ووضع نفسه تحت تصرف فرنسا عبر قنصلها السيد دي إيسار Des Essarts. للاطلاع: البطريرك أنطوان عريضة : مرجع سابق، ص67

[73]- Jessup: p210.

[74] البطريرك أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص46.

[75] أكدت الاحداث المتتالية التي حصلت في بلاد الشام على ميل الطائفة المارونية باتجاه أوروبة المسيحية عامة وفرنسا الكاثوليكية والداعمة لهم ولمشروعهم بوجه الخصوص، منذ الغزو الصليبي لبلاد المشرق العربي. وحتى قدوم حملة نابليون على بلاد الشام. حيث يذكر الامير حيدر الشهابي فيقول :" أما أهل جبل لبنان(الموارنة) فإنهم فرحوا بقدوم الجيش الفرنسي الى بلاد الشام على أمل التحرر من ظلم الجزار. وقد حملوا الى الجيش الفرنسي الخمر والبضائع واللوازم بأضعاف الثمن". للاطلاع: لبنان في عهد الامراء الشهابيين من كتاب" الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" للأمير حيدر الشهابي، عني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه د. أسد رستم، د. فؤاد أفرام البستاني. منشورات الجامعة اللبنانية، القسم الأول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1969م، ص132

[76] كمال سليمان الصليبي: مرجع سابق، صـ42. وجيه كوثراني: مرجع سابق، ص43.

على المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية، ثم ليكون منهم بعد ذلك المترجمون في القنصليات الفرنسية بالشرق ولكن التجربة فشلت فاتبعت وسيلة أخرى وهي إعداد شبان من الفرنسيين لهذا الغرض في المدارس الفرنسية، ثم مدرسة اللغات الشرقية بباريس[77]. وأنشأ البابا جريجور الثالث عشر/1572-1585م[78]. كلية خاصة للموارنة في روما عام /1584م/. ليدرس فيها طلاب اللاهوت الموارنة. بل أن البابا كان يمنحهم مزيداً من التميز حتى على الطوائف المسيحية الأخرى المرتبطة بالكرسي البابوي في المشرق[79]، سيما خلال مواجهة البابوية للحركة البروتستانتية وقد ترتب على ذلك نتائج بالغة الخطورة أدت لخروج الموارنة من عزلتهم التي فرضوها على أنفسهم في الجبل، ولهذا علقوا أمالهم باستمرار في كافة الأزمات على التدخل الأوروبي لصالحهم.

وبذلك فقد كان الموارنة يعملون على التحرر من الدولة العثمانية التي كانت في نظرهم محتل لبلادهم بينما كانوا يرون أن احتلال بلادهم من جيش أجنبي لا يمس جو استقلالهم في شيء، وبالرغم من أصول الموارنة الشرقية إلا أنهم حافظوا على علاقاتهم بالكنيسة البابوية حتى أنهم كانوا يطلبون من البابا تثبيت بطريركهم على كرسي أنطاكية كلما توفي مطران وتلاه أخر وكان الشخص الذي توكل اليه هذه المهمة هو رئيس الرهبان الفرنسيسكان[80]. واعتبرهم الفرنسيون ((فرنسيو الشرق))[81] وأعلن لويس الرابع عشر ملك فرنسا في القرن السابع عشر حمايته للأمة المارونية التي اعتبرها جزءاً لا يتجزأ من الأمة الفرنسية وطلب من قناصل فرنسا إعطائهم كافة ما يحتاجون اليه وإمدادهم بالحماية والرعاية حتى لدى موظفي الدولة العثمانية، كما أعلن لويس الخامس عشر عام /1737م/. عن حمايته قائلاً للموارنة بقوله: فنحن قد قبلناهم تحت حمايتنا ووصايتنا لكي يحظوا بالإفادة في ساير الأوقات[82] ثم طلب من قناصل فرنسا أن يسعوا باجتهادهم ووظائفهم وحمايتهم حضرة قدس البطريرك الأنطاكي وكامل المسيحيين الموارنة في كل مكان.

يجب التذكير بأنه منذ منتصف القرن الثامن عشر اعتنق المسيحية عدد كبير من الأمراء الشهابيين وتبعهم عدد آخر من الأمراء المعنيين أصحاب إقطاع المتن وبذلك قدموا بدورهم العديد من المساعدات للموارنة على كافة الأصعدة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

فلم يقتصر منح الامتيازات الأجنبية في بلاد الشام عموماً ولبنان خصوصاً على السلاطين بل نرى أميراً محلياً كفخر الدين المعني يمنح الفرنسيين والفلورنسيين بحكم علاقته الجيدة بهم أراضي لإعمار خانات لهم في صيدا ويسمح للمبشرين

[77] أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سابق، صـ249.

[78] البابا جريجور الثالث عشر: بولوني الجنسية استلم الكرسي البابوي في الكنيسة الكاثوليكية في روما من عام 1572-1585م وكان لديه من العمر 70سنة، ترتيبه الرقمي في البابوية226. استمرت بابويته مدة 12سنة و332يوم. للاطلاع : موقع ST-Takala.org .

[79] ليلى الصباغ: مرجع سابق، صـ 770

[80] ليلى الصباغ: مرجع سابق، صـ773.

[81] ياسين سويد: فرنسا والموارنة-تقارير ومراسلات/1860-1861م/، شركة المطبوعات، ب يروت1992م، صـ65

[82] عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، صـ49

الكبوشيين[83] بدخول منطقة الشوف وإقامة أديرة فيها. ولم يكن لهذه الامتيازات من خطر على الدولة عندما كانت قوية ولكن الأجانب أساءوا استعمالها عندما أصبحت ضعيفة في القرنين /18-19م/فأخذ القناصل يستغلون على الولاة والموظفين، بل أصبحوا يتواسطون لعزلهم لدى السلطنة العثمانية وينجحون في ذلك[84].

وعندما رزحت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر تحت وطأة الامتيازات، وغدت القنصليات الأجنبية في ولايات الدولة أوكاراً للدسائس والفتن، والذي ميز دور القناصل في الدولة إصدار نظاماً في عام /1869م/ يتضمن إعفاء جميع أشياء القناصل ووكلائهم الذين لا يمارسون التجارة من رسوم الجمارك، وكان بعض قناصل الدول الأجنبية في بيروت ثم وكلاء القناصل ومعظم المجتمعين فيما بعد من أبناء البلاد المسيحيين ولاسيما الموارنة الذين تم تخريجهم من المدارس والكليات الفرنسية التي أنشئت لأجلهم[85].

خامساً: استنتاج:

أعطت الدولة العثمانية بموجب نظام الملل استقلالية لرؤساء الطوائف غير المسلمة، وضمنت لهم قدراً كبيراً من الاحترام، فخاطبوا الصدر الأعظم بعبارة ((معروض داعيلريدركه)) أي معروض داعيكم – تماماً كما كان يخاطب رجال الين المسلمين–وأنعمت عليهم الدولة بالأوسمة والألقاب. وسمحت لهم ببناء الكنائس والأديرة ضمن شروط يتفق عليها مع أصحاب الأرض التي ستقام عليها تلك المباني الدينية.

ومنحت الدولة العثمانية الدول الأجنبية التي سعت جاهدة لأخذ امتيازات لرعاياها الأجانب والمسيحيين على حد سواء، وصدور مجموعة من التنظيمات الخيرية والتي كان أهم بنودها نظام الملل الذي يسمح للدول الأوروبية التدخل في شؤون السلطنة العثمانية في فترة الضعف وما تلاها من انهيار وزوال، والتنافس الاستعماري لأخذ مكاسب سياسية وثقافية واقتصادية [86] لم تؤثر بشيء على كيان الدولة في فترة قوتها ولكنها كانت المسمار الأخير الذي دق في نعش السلطنة العثمانية بسبب الفتن والثورات والاضطرابات التي ساهمت بها الدول الاستعمارية وبالأخص فرنسا وتشجيعها لقيام الإمارة الشهابية في القرن السابع عشر ومن ثم الدعم العلني والمباشر لقيام المشروع الماروني في جبل لبنان وما سبقه من قيام القائمقامية بعد أحداث عام /1840م/، والتي كانت سبباً أساسياً في الأحداث الدامية لعام /1860م/ ونشوء المتصرفية والحكم المسيحي الماروني للبنان بعد انعقاد المؤتمر الدولي في بيروت عام /1860م/.

سادساً: الخاتمة:

[83] أعضاء في جماعة دينية كاثوليكية بابوية تسمى رهبنة الفرايز الصغار الكبوشيين(Order of Friars Minor Capuchin) وهي فرع من رهبنة الفرنسيسكان. ووصفوا بالكبوشيين اشتقاقاً من كلمة كبوش وهي قلنسوة طويلة ذات حافة رقيقة كان يلبسها الرهبان. مؤسسها الراهب الايطالي ماتيودا باسكيو في عام 1525م. مقرها في روما بإيطاليا. موقع الكتروني Capuchins Franciscans

[84] عبد العزيز عوض: مرجع سابق، صـ330

[85] محمد زعيتر: مرجع سابق، صـ85.

[86] في مجال التنافس الاقتصادي نالت شركة فرنسية امتياز لجر مياه نهر الكلب الى بيروت ولكنها عجزت عن تنفيذه فباعته الى شركة بريطانية عام 1876م. وتم العمل بالمشروع سنة 1884م. للاطلاع : الامير شكيب أرسلان، مرجع سابق، ص44.

بطبيعة الحال لا نستطيع التكهن بما كان سيحدث لو كتب لمسيرة الإصلاح أن تمضي قدماً في تحقيق مجتمع المساواة وما ستؤول إليه الأوضاع لو كُتب للدولة البقاء. لكن الحقيقة الثابتة هي أن النظام العثماني كان قد أخذ بالتفكك ممهداً السبيل لولادة نظام جديد أجهضته الأحداث التي تلت فترة التنظيمات العثمانية والامتيازات الأجنبية التي منحت للدول الأوروبية ورعاياها.

خلاصة القول إن المجتمع العثماني خلال القرن التاسع عشر كان يعيش فترة احتضار اكتملت بزوال الدولة سنة /1922م/. وإعلان النظام الجمهوري من قبل مصطفى أتاتورك.

المراجع References:

1. أحمد عزت عبد الكريم: العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر (الفصل الثالث من كتاب– دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة–القاهرة) مقدمة حوادث دمشق اليومية، القاهرة، 1995م.
2. أنطوان العقيقي: ثورة وفتنة، بيروت، 1939م.
3. البطريرك أنطوان عريضة: لبنان وفرنسا(وثائق تاريخية أساسية تبرز دور بكركي في مواجهة الانتداب الفرنسي والاحتكارات الفرنسية) ترجمة فارس غصوب، مراجعة مسعود ضاهر، دار النشر الفارابي، ط1، بيروت 1987م.
4. الامير حيدر الشهابي: لبنان في عهد الامراء الشهابيين من كتاب" الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" ، عني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه د. أسد رستم، د. فؤاد أفرام البستاني. منشورات الجامعة اللبنانية، القسم الأول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1969م.
5. الأمير شكيب أرسلان: مدونة أحداث العالم العربي 1800–1950م، إشراف وتحرير يوسف إيبش وتوما عريضة ويوسف خوري، الدار التقدمية،ط2، بيروت 2011م.
6. باسم الجسر الصراعات اللبنانية والوفاق (1920–1975م)، دار النهار للنشر، بيروت 1981م.
7. خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، ترجمة محمد الارناؤوط، دار المدار الاسلامي، ط1، بيروت2002م.
8. دونالد كوترات: الدولة العثمانية/1700–1922م/، تعريب أيمن الأرمنازي، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، 2004م.
9. زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت،1971م.
10. عادل إسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج4، بيروت 1960م.
11. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، 1297هـ / م، أربعة أجزاء.
12. عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى: التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834–1914م مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة 2005.
13. عبد الرؤوف سنو: المصالح الالمانية في سوريا وفلسطين 1841–1901م، معهد الانماء العربي، بيروت، 1987م.
14. عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية–ولاية سورية (1864–1914م)، دار المعارف، مصر 1969م.
15. عصام كمال خليفة: وثائق لبنانية من الأرشيف العثماني(1841–1913م) دار نوفل للنشر، ط1، بيروت، 2008م.
16. علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الاسلامية ،ط1، القاهرة ،2001م.
17. علي عيد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفارابي، ط1 بيروت، 2013م.

18. علي عبد المنعم شعيب: التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2005م.
19. قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط2، بيروت،2003م.
20. كمال سليمان الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر ط7، بيروت 1991م.
21. ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في العهد العثماني في القرنين /16,17م/، مؤسسة الرسالة، بيروت 1989.
22. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي/1514-1914م. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
23. محمد زعيتر: المشروع الماروني في لبنان، جذوره وتطوراته، الوكالة العالمية للتوزيع، بيروت 1986.
24. محمد سالم الرشيدي: محمد الفاتح ، دار البشير للثقافة ، ط2 مصر، 2013م.
25. محمد مصطفى الهلالي: السلطان عبد الحميد الثاني بين الانصاف والجحود، دار الفكر، دمشق2004م.
26. محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس ط1، 1981م.
27. محمد كرد علي: خطط الشام، ج3، مطبعة النوري، دمشق، 1983م.
28. محمود عامر:" أهمية المصادر العثمانية لفترة النشأة من خلال الدفاتر والفرمانات ودفاتر المهمة"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد77- 78، ك1 وحزيران، 2002م.
29. مسعود ضاهر: الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي، دار الفارابي، بيروت، 1988م.
30. مصطفى خالدي وعمر فروخي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها ط1، بيروت 1953م.
31. ميخائيل الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان1179-1257هـ/ 1782-1841م. عني بنشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الاب لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت،1912م.
32. وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية-السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860-1920م) معهد الإنماء العربي، ط3، بيروت، 1982م.
33. ياسين سويد: فرنسا والموارنة-تقارير ومراسلات/1860-1861م/، شركة المطبوعات، بيروت، 1992م.
34. يلماز أوزوتونا: موسوعة تاريخ الامبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري/1231-1922م، ت. عدنان محمود سليمان، المجلد الأول، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت،2010م.
35. Adel Ismail:Documents diplomatiques et consulaires relatifs al'Histoire du Liban. Editions des ouvres plitiques et historiques,(Archives turquie).
36. D.chevalier: Aspects Sociaux de la question d'orient:aux origins des troub les agraires,auIiban en 1858, In Annales look on p.173 14 eme siècle, paris 1968.
37. Cheralier: lyon la Syrie en 1919: les bases d'une intervention, d((lyon et la Syrie en 1919. Les bases d'une intervention.Revue Historique)), October-Decembre, Paris 1960.
38. Jeesup.filly.three years in Syria,by Henry Harris Jessup, n.Y 1910.
39. Les jesuites en syrie 1831-1937,12 parties en deut vols, Paris 1937.
40. Richter A History of the protest-tant Missions in the near east,by Julius Richter(English translation adapted by the Author)N.Y.1910.

41. Volney,Voyagen en Egypte et en Syrie (Paris,1959).
42. ST-Takala.org .
43. Capuchins Franciscans.